صورة العنف و تمثلاته في الرواية الجزائرية

رواية" الأسود يليق بك "لأحلام مستغانمي أنموذجا

Symbolism of violence in the Algerian novel

. "al'aswad yaliq biki" is a model

د/ محمد الغزالي بن يطو *

د / إسماعيل سعدي †

تاريخ الإرسال: 2021/04/13	تاريخ القبول: 2021/05/04	تاريخ النشر: 2021/09/15

الملخص :

تجلت رمزيو العنف في الكتابات الروائيّة الجزائرية كأداة تعبير عن روح الأزمة الإنسانية القاسية من خلال تفاعل الروائي الواقعيّ مع مجتمعه الذي عاش كابوس الرّعب والذي اصطلح على تسميته بـ (العشرية السّوداء) عايش أحداثها كل أبناء الجزائر من مختلف الشرائح الاجتماعيّة، فجاءت بعض الأصوات تبوح عن حالة من اليأس و الاستلاب الروحي، فاستطاعت الرواية -الأسود يليق بك- لأن ترصد هذه الحالة وتقبض على هذه اللحظة التاريخيّة للإنسان الجزائري في ظلّ الإرهاب من خلال الأدوار التي أُسندت لأبطال الرواية الكلمات المفتاحية: كلمة، كلمة، كلمة، كلمة، كلمة.

الكلمات المفتاحية : التيمة -الإرهاب – العشرية السوداء- الفضاء الروائي .

Abstract:

The Transfiguration of symbolic terrorism in the brochures feature the Algerian as a tool to express the spirit of the severity of the humanitarian crisis through the interaction of the novelist of realism with his society, who lived the nightmare of horror which used to be called (the Black decade)

المؤلف المرسل : محمد الغزالي بن يطو: benyettoumohammed@cu-barika.dz

* قسم اللغة و الأدب العربي ، معهد الآداب و اللغات ، المركز الجامعي سي الحواس – بريكة - benyettoumohammed@cu-barika.dz

† قسم اللغة و الأدب العربي ، معهد الآداب و اللغات ، المركز الجامعي سي الحواس – بريكة - Smailsaadi@cu-barika.dz

experienced the events of all the Sons of Algeria from different social strata, including some of the sounds reveal the despair and spiritual emptiness, allowing the novel - al'aswad yaliqo biki- because to monitor this situation and seize this historic moment of man Algeria in the shadow of terrorism through the roles that were assigned to the heroes of the novel.
***Keywords**: Tem, terror, black decimal, storyteller Space, Reality novelist.*

*** *** ***

مقدمة :

قد يكون لفظ العنف و الإرهاب مادّة زئبقيّة توظّف بالطريقة التي يرغب فيها الأقوى، فالقوي هو من يضع للأشياء مسمياتها ، فقديما نعت النازيّون الألمان الثوار الفرنسيين بـ (الإرهاب) لأنهم رفعوا السّلاح في وجههم دفاعا عن وطنهم، و سمّت السلطات الاستعماريّة الفرنسيّة بدورها ثوار جبهة التحرير الوطني بـ (الإرهابيين)، وأطلق الكيان الصهيونيّ على الشعب الفلسطينيين لفظ (الإرهاب) حتى وإن تعلّق الأمر بالأطفال أو رجال يمارسون السياسة بعيدا عن العنف أو كلّ من يتبنى القضية الفلسطينية مشروعا تحرّريّا، إذن هذه الكلمة التي تسمى إرهابا خضعت لمزاج الغرب كثيرا في مواجهة الحركات التّحررية في العالم وفي العقود الأخيرة كرّس الخطاب السياسي في الغرب و بمؤازرة من الآلة الإعلاميّة الصهيونيّة صورة الإرهاب بالمسلمين بل وعمّمها على عامة المسلمين ، وصارت أية جريمة تحدث في العالم تنسب إلى مسلم جورا وظلما ولو كان بريئا إنّ هذا الانحياز الأعمى ساهم في اختلال العلاقات بين الغرب والشرق لأنّ ببساطة الإرهاب لا لون له و لا دين له فالإرهاب عدوّ للحياة. لكن ما حدث في الجزائر هو الإرهاب بعينه لسبب بسيط وهو إرهاب مُعادي لكلّ مظاهر الحياة والجمال، ولم يستثنِ أحدا من الجزائريين سواء أكانوا كبارا أم صغارا ، نساء أم رجالا ، مثقفين أم أميين واستهدف الزرع والضّرع وكلّ من أراد أن يقف إلى صفّ الجزائر الجميلة، باختصار الإرهاب هو الشّر بعينه ومُعادٍ لكلّ القيم الإنسانية مهما كانت الذّرائع والأسباب والشّعارات المُغالطة.

من هنا ظهرت انعكاساته في الكتابات الروائيّة ومنها الرواية النسويّة الجزائرية تعبيرا عن روح الأزمة من خلال تفاعل الروائي الواقعيّ مع مجتمعه الذي عاش كابوس الرّعب والذي اصطلح على تسميته بـ (العشرية السّوداء) عايش أحداثها كل أبناء الجزائر من مختلف الشرائح الاجتماعيّة، فجاءت بعض الأصوات تبوح عن حالة من اليأس و

الاستلاب الروحي، فاستطاعت الرواية أن ترصد هذه الحالة وتقبض على هذه اللحظة التاريخيّة للإنسان الجزائري في ظلّ الإرهاب من خلال الأدوار التي أُسندت لأبطال الرواية. ومن المشاهد التي يواجه بها الإرهاب ما قالته البطلة، حين قرّرت أن تواجه الإرهاب بالكلمة المساندة للوطن للحياة: " قرّرت أن أؤدّي الأغنية الأحبّ إلى قلبه، كي أنازل القتلة بالغناء ليس أكثر.. إن واجهتهم بالدموع يكونوا قد قتلوني أنا أيضاً."(1) (مستغانمي، 2013، صفحة 16) ، قد تكون هنا الكلمة أسلوب نضال من أجل الحياة وأداة مقاومة في وجه العدو الذي يتربص بكلّ ما هو جميل في جزائر العزّة والكرامة، لأنّ من أَحبّ الجزائر أحبّه الجزائريّون أيضا من خلال الكلمة "تنازل الإرهابيين بملء حنجرتها"(2) (مستغانمي، 2013، صفحة 33)

كان الجزائريون يقتاتون يوميّا من أخبار المذابح و المجازر التي تصنع يوميّاتهم عبر الصحف والتلفزيون، ومن هذه الأخبار مجزرة بن طلحة في الجزائر التي لا ينساها الجزائريون مهما طال الزمن: "بعد أيّام، حين نقلت الصحافة أخبار مذبحة بن طلحة التي نحر فيها الإرهابيّون 500 قرويّا"(3) (مستغانمي، 2013، صفحة 35).

وهنا دخلت الجزائر في نفق مظلم قد لا تُعرف عواقبه ففي المدن الاغتيالات تطال كل شرائح المجتمع خاصة منهم العناصر الفاعلة في المجتمع، أمّا في الأرياف فقد هرب القرويون من قراهم وتركوا كلّ ما يملكون وراءهم بحثا عن الأمان وخوفا من القتل الاستعراضي الذي يلاحقهم من الجماعات المسلّحة في الجبال، وبالمقابل زج بالكثير في السجون. " كانت معتقلات الصحراء تضمّ عشرات الآلاف من المشتبه فيهم،...."(4) (مستغانمي، 2013، صفحة 69) كانت الحياة في الجزائر تسير نحو الأسوأ حين قرّر الكثير من الشباب المغرر بهم الانخراط في الجماعات المسلحة دون سابق وعي؛ إذْ أنّ الأمر هنا يتعلّق بـ (منْ يقتل منْ)، وكثر القتل التنكيل، وصدق من قال يومها: من ينقذ الجزائر من بعض الجزائريين، لأنها صارت ساحة للقتل والموت واستبدّ الخوف بالجزائريين ولم تعد الحياة كما كانت "كان في كل حي شبكات تجنيد، كما شبكات لاختطاف الأطبّاء والتقنيّين و كل من احتاج الإرهابيون إلى مهاراته. أقنعوه بأن يلتحق بالجبال، ليضع خبرته في إسعاف (الإخوة) هناك ومعالجة جرحاهم."(5) (مستغانمي، 2013، صفحة 69)

وتحوّلت الجزائر الجميلة بتاريخها و رجالها ونسائها و طبيعتها الخلابة و ثرواتها العظيمة التي تعرف بها إلى مقبرة لوأد الأحلام والأجساد معا. "ضمن المتابعة اليوميّة لما درج على تسميته (المذابح الجزائريّة)، كلّ هذه الأخبار كانت تناقلتها الصحافة الوطنيّة وتضيف عليها الصحافة الأجنبيّة ما تريد من تلفيق لتخرّب صورة الجزائر الجميلة وكانت المرأة الفنانة تتلقف الصحافة قصّتها،وها قد غدت رمزاً للنضال النسائي ضد (الإسلاميّن) و(العصفورة التي كسرت بصوتها قضبان التقاليد العربية متحدية من قصوا جناحيها)(6) (مستغانمي، 2013، صفحة 73).

و عمّ العنف كلّ مكان و لم يعد يفرّق بين الإنسان والأشياء وبين طالب ذاهب إلى المدرسة وشيخ ساع إلى المسجد ليؤدي صلواته " ففي تلك الأيام، كان المهم أن تحفظ رأسك لا أن تحفظ درسك، مذ درج الإرهابيّون على قتل كلّ من يحمل محفظة مدرسيّة، مُدرّساً كان أو تلميذاً."(7) (مستغانمي، 2013، صفحة 80) وكلّما طالت الأحداث تعفّنت وتمدّد الإرهاب ليطال فئات أخرى مسالمة من المجتمع الجزائري وهي فئة النساء اللاّئي كنّ بعيدات عن المشهد غير أنّ الإرهاب الأعمى جعل منهنّ أهدافا سهلة، وطوّع بعض المقولات الدّينيّة حتى يقنع نفسه بنفسه ويمارس عليهنّ هوايته السّاديّة وكثرت النساء المختطفات والمُعنّفات والمغتصبات "يُعالج الجرحى ويولّد النساء المغتصبات اللائي (سباهنّ) الإرهابيّون بذريعة أنّهنّ بنات وزوجات موظفين أو عاملين في الدولة ..."(8) (مستغانمي، 2013، صفحة 84) ، من السهل أن تقنع إنسانا بأنّ أفكاره خاطئة ولكن من الصّعب بمكان أن تقنع إنسانا أَقنع نفسه بنفسه إنّه على صواب! "بل الإرهابيون يقتلون الناس بذريعة أنهم أقل إسلاماً مما يجب!"(9) (مستغانمي، 2013، صفحة 194).

العنف الاجتماعي و الأسري:

قد تتحوّل فوبيا العنف و الإرهاب من حالة اجتماعيّة متفشية في الحياة إلى حالة نفسيّة مستبدّة بالإنسان، تطارده في كلّ مكان حتى ولو تعلّق الأمر وهو على الرّكح كما هو الحال بالنسبة لهذه الفتاة التي تتمثّل هواجس الخوف حتى في أقاربها، ما دام بواعث الخوف واحدة لا يهم أن يكون من قريب أو بعيد " لقد غيّر تهديد الأقارب سلّم مخاوفي. إنّ امرأة لا تخشى القتلة، تخاف مجتمعاً يتحكم حماة الشرف في رقابه. ثمّة إرهاب معنوي يفوق جرائم الإرهابيين... تصوّر حين وقفت على الخشبة أوّل مرّة، كان خوفي من أقاربي

يفوق خوفي من الإرهابيين أنفسهم. أنا ابنة مدينة عند أقدام الأوراس لا تساهل فيها مع الشرف."(10) (مستغانمي، 2013، صفحة 16) ، و بلغة استحضاريّة راحت الفنانة تعاتب من تسبّب في تعاسة طفولتها فهي تعيش حالة من الخواء العاطفي مصدره أقرب الناس إليها وهما الوالدان، وقد يكون الوالدان هما ضحية مثل ابنتهما لأنّ المشكلة هي مشكلة مجتمع تأسّس على علاقة وظيفيّة خالية من أية تواصل عاطفي بين أبنائه. إذن الحرمان هو نتيجة الإرهاب الأسري والسياسي أيضا" هو لا يدري أن لا أحد أهدى إليها ورداً قبل أن تصبح (نجمة). إنها كمن تكتشف على كِبر أنّها لم تمتلك يوماً دُميةً، وأنّهم سرقوا منها طفولتها. كلما قُدّمت لها باقة ورد، شعرت أنّها تثأر لمن قُمعت فيها أنوثتها. كما الليلة، تشعر وهي في عربة الورد هذه، كأنّها عروس"(11) (مستغانمي، 2013، صفحة 21)، وهذا ما تقرّه البطلة بصريح العبارة، لأنّ المجتمع ربط بين الحبّ والرذيلة وجعلهما في مستوى واحد ولذا في الثقافة التّقليديّة صار لفظ (الحب) من التابوهات التي لا يبوح به صاحبه إلاّ سرّا وخاصة إذا تعلّق الأمر بالمرأة فيتحوّل الأمر إلى جريمة لا تغتفر قد تودي بصاحبتها إلى الموت لأنّ مثل هذه الأفعال التي تصنّف بجرائم الشرّف تهزّ العائلة كلّها، ولا تهدأ حتى تمحوَ عارها بقتل من ارتكبت هذه الجريرة. "في مدينتها تلك، الحبّ ضرب من الإثم، لا يدري المرء أين يهرب ليعيشه.. في سيّارة ؟ أم في قاعة المعلّمين ؟ أم على مقعد في حديقة عامّة؟"(12) (مستغانمي، 2013، صفحة 25) والغريب في الأمر هنا لا يتوقّف الأمر عند الطبقة المحدود الثقافة بل يتعداه الأمر إلى أولئك المحسوبين على طبقة المثقفين كمعلمي المدارس "على سبيل المثال ونجد مصطفى خطيب هدى السابق يعلق على قصة الطفل الذي كتب رسالة حب لزميلته وقبض عليه الأستاذ ثم تم طرده من المدرسة "من صفّ ذلك الأستاذ سيتخرّج فوج القتلة القادمين. إنّ اليد التي تُعاقَب لأنّها كتبت كلمة أحبّك إنّما هي يد أُعِدّت لإطلاق الرصاص."(13) (مستغانمي، 2013، صفحة 36)

ومن المشاهد التي تستذكرها الكاتبة الحرب الأهلية في لبنان التي جرت أحداثها أواسط السبعينيّات من القرن الماضي والتي جاءت على الأخضر واليابس وقد وضعت الحرب أوزارها، لا رابح فيها و لا خاسر، بل الخاسر الأكبر فيها هو لبنان الوطن والجمال والخير "كان يدري أنّه سيعود إلى لبنان أكثر ثراءً، ممّن دعوه من أهله للإقامة بينهم، حتّى تهدأ الحرب الأهليّة"(14) (مستغانمي، 2013، صفحة 147)، ولم تكتف الكاتبة بذلك بل

راحت تنتقد الأوضاع اللبنانيّة والخدوش التي تركتها الحرب بين أبناء الوطن الواحد الذي تتعايش فيه ثماني عشرة طائفة منذ الأزل بما يعرف عندهم بقاعدة العيش المشترك بين طوائف المختلفة" ثم إنّ بيروت السبعينيّات كانت مهووسة بالثقافة والتنظير. الكلّ كان فيلسوفاً على طريقته، جاهزاً، أيّاً تكن مهنته، لأن يصبح كاتباً، أو صحافياً، أو شاعراً.. بقدر هوسها اليوم بتخريج جحافل المتخصّصين في إدارة الأعمال، والمصرفيّين، وخبراء الكومبيوتر، وجرّاحي التجميل.

تغيّر العالم إلى حدّ لن تعثر فيه اليوم على أحد يباهي بأنّ ابنه يدرس ليصبح أستاذاً في الأدب، أو في الجغرافية، أو في التاريخ، أو الفلسفة. وظائف كثيرة مهدّدة بالتطهير المهنيّ وقد تنقرض ذات يوم لأنّه ليس لأحلامها من جيوب."(15) (مستغانمي، 2013، صفحة 147)

و لأنّ لبنان تاريخيّا هو جزء من سوريا الكبرى قديما، فعرجت الكاتبة على حدث سياسي في سوريا عرف في ثمانينيّات القرن الماضي وفيه أباد فيه الطيران السوري انتفاضة الأخوان المسلمين " لقد عاشت أمّها الفاجعة نفسها في سنة 1982 يوم غادرت حماه وهي صبية مع والدتها وإخوتها، لتقيم لدى أخوالها في حلب، ما استطاعوا العيش في بيت ذُبح فيه والدهم".(16) (مستغانمي، 2013، صفحة 194)

ومن مواقف الكاتبة الجريئة نقدها لسياسة الوئام المدني الذي تسامحت مع الإرهابيين والمجرمين القتلة في العشرية السوداء والذين تسبّبوا في إبادة الجزائريين واغتصاب الجزائريات وتخريب كثير من الممتلكات العامة والخاصة "في نوبة من نوبات العفّة، ألقي القبض ذات مرّة في العاصمة على أربعين شاباً وصبيّة معظمهم من الجامعيّين، وأودعوا السجن فيما كان الإرهابيّون يغادرونه بالمئات مستفيدين من قانون العفو! كان زمناً من الأسلم فيه أن تكون قاتلاً على أن تكون عاشقاً."(17) (مستغانمي، 2013، صفحة 26)

وتحاول الكاتبة بلغتها الجريئة التي عودتنا عليها في أكثر من موقف أن تنتقد أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية من خلال الرسائل التي يتمّ تمريرها على لسان بعض الشخصيات الروائيّة الفاعلة في المتن الروائي ومن هذه الأمثلة ما قالته على لسان مصطفى: "ما الذي يُخرج المرء عن صوابه غير أن يرى لصوصاً فوق المحاسبة.. ينهبون ولا

يشبعون، ويضعون أيديهم في جيبك، ويخطفون اللقمة من فمك، ولا يستحون! إنّه القهر والظلم و(الحقرة) ما أوصل الناس للجنون. إذا فقد الجزائري كرامته فقد صوابه، لأنه ليس مبرمجاً جينياً للتأقلم مع الإهانة "

وترى الكاتبة أنّ من مثالب قانون الوئام هو التّغاضي عن جرائم الإرهابيين الذين ارتقوا بالأمس إلى مناصب عليا في الجبل بفضل سفكهم لكثير من دماء إخوتهم الجزائريين ومن هذه النماذج التي استفادت من العفو أنموذج عمار "بعد عام، نزل عمّار من الجبال (أميراً). رفعته جرائمه إلى مقام (أمير كتيبة). عاد مع التائبين، مغسول اليدين من جرائمه، بحكم قانون العفو العام. لكن من يغسل قلب أمّها النازف؟ وأيّ قانون ينسيها ترمّلها وثكلها؟".(18) (مستغانمي، 2013، صفحة 154)

هذا هو مشروع السلم والمصالحة الذي تقدم به الرئيس بوتفليقة الذي يمكن توصيفه بالدّواء المرّ لكن في مرارته شفاء للبدن، والعرب قديما قالت آخر العلاج الكي، ولذا أراد الرجل أن يُخيّر بين مزيد من سفك دماء الجزائريين أو حقن دمائهم عن طريق التسامح والتّصافح ونسيان الماضي فاختار الرأي الثاني الذي زكّاه الجزائريّون في استفتاء عام ووافقوا عليه وبذلك عاد الهدوء إلى ربوع الوطن "في هذه بوتفليقة يعطيه الصحة.. يرحم والديه عمل شيء ما حد غيرو كان قدر عليه"(19) (مستغانمي، 2013، صفحة 196)"لكن أمّها ليست جاهزة للغفران والصفح على مَن تسبّب في جراحها، هي لم تغفر لمن قتلوا أباها قبل ثلاثين سنة في حماه، فكيف تغفر لمن أخذوا منها ابنها وزوجها قبل عامين. رفضت قبول الدية التي قدّمتها الدولة لأهالي ضحايا الأرهاب. كيف تقبل دية عن جرائم، هي بحسب قانون العفو العام والوئام الوطني، لم تحدث، ويسقط عن مرتكبيها حق الملاحقة، مها كانت فظاعتها(!)

لأنّ تحقيق الأمن في الوطن لا يكون على حساب العدالة وإحقاق الحق، فضحايا المأساة الوطنيّة ليست لهم صفة الضحية، ما دام بالمقابل المجرم لا يحمل صفة المجرم.

كلّ جرى للجزائريين والجزائريات على مدى عشر سنوات خلت لم يكن سوى حالة من الهستيريا قابلة للنسيان.

ويمكن للنساء المغتصبات أن يتحمّلن جريرتهنّ لوحدهنّ وأن يتصالحن مع مأساتهن و يرضين بما أنجبن من لقطاء... فقد عفا الله عما سلف وعفا القانون أيضا عن

المغتصب! "وعلى أهالي المفقودين أن يكفّوا عن إزعاج الناس بالتظاهر، وليغفروا لوطن فقد هو أيضاً صوابه!

وعلى ابن الرئيس محمد بوضياف أن يتوقّف عن مطاردة الحقيقة، ومساءلة الدولة عمّن اغتال أباه، فجرائم الدولة أيضاً يشملها قانون العفو!

أكثر من جنون الإجرام، يطالبك الوطن الآن بجنون الغفران. وبعد واجب التذكّر، أصبح المطلوب أن ننسى، لأن القاتل هذه المرّة جزائريّ، وليس فرنسياً. لقد عاد من نوبة جنونه أتقى وأكثر وطنيّة منك. والإرهابيون الذين كانوا يحرقون الأعلام الوطنية حالما يصلون إلى قرية، ينزلون الآن من الجبال وهم يعرفونها. والذين طال عنفهم، حدّ نبش عظام شهداء الثورة وإحراقها، لأنهم أسهموا بجهادهم في ولادة دولة علمانية، هم الآن يتنافسون على إثبات ولائهم للدولة كي يفوزوا بكرمها. "(20) (مستغانمي، 2013، الصفحات 196-197) إنّ مشاكل الجزائر مع أبنائها كثيرة ومتنوّعة، فلم يعد الإرهاب وحده هو من يهمن على عقول الجزائريين اليوم بل هناك إرهاب من نوع آخر صار يبتلع الجزائريين ولكن هذه المرة بمحض إرادتهم، وبشجاعة لانظير لها، وهي حين يختار شباب من مختلف الأعمار والمستويات الثقافيّة لركوب قوارب الموت والإبحار صوب شواطئ أوروبا أو ما يعتقدونه بالفردوس الفقود هناك " النذير أيضاً (أدّاه البحر). أخذه حيث (محال يِوَلّي). حتّى جثمانه محال يرجع... أمّا الذين يعودون أحياءً، فسيواصلون كابوسهم في السجن. فالدولة التي تدلّل الإرهابي لأنه عاد بعد ضلالة، تُجرّم من هو جاهز للانتحار، لأنها وحدها تملك حق قتله بالتقسيط."(21). (مستغانمي، 2013، صفحة 234)

إنّ المنتصر في الحرب هو من يكتب التاريخ، وهو أيضا من يضع للأشياء أسماءها، كم أنّ ليس للحرب حقيقة واحدة خاصة إذا كثر الرّواة عنها "في الجزائر، أدركت على حسابها أنّ الحروب ليس فيها حقيقة واحدة، ولا إرهاب واحد (...) بدأت مشاكلها حين راحت تصرّح للصحافة الحرّة، بأنّ ثمّة جزائر للقلوب وأخرى للجيوب، وإرهاباً سافراً وآخر ملثّماً، وأن كبار اللصوص هم من أنجبوا للوطن القتلة، فالذين حملوا السلاح ما كانوا يطالبون هم من أنجبوا للوطن القتلة، لحظة توقّع أن يطلق أحدهم النار عليه، فربّما دلّ الأمن على مخابئهم.. إن رجلاً يقتل يوماً أحداً لا بدّ أن يُقتل!".(22) (مستغانمي، 2013، الصفحات 94-95)

اشتغلت الروائيّة أحلام مستغانمي على بعض مصطلحات العلوم الحديثة كعلوم الطبيعة و البيولوجيا مثلا: "لم تكن نجمة كانت كائناً ضوئياً، ليست في حاجة إلى التبرّج كي تكون أنثى يكفي أن تتكلّم."(23) (مستغانمي، 2013، صفحة 15)الكائن الضوئي هو كائن غيري التغذية وضوئي التغذية أي أنها تستخدم الضوء لإنتاج الطاقة وتتقاطع هنا مع أنها تختلف عن أقرانها من النساء في استغنائها عن مستحضرات التجميل.

ومن المثيولوجيا القديمة ما قالته فشأن الأزهار التي تحولت من كائنات بشريّة إلى كائنات نباتيّة قائلة "تذكّر أنّه في الميثولوجيا، لم تكن الزهور سوى صبايا قتلتهن العاطفة، فتحوّلن إلى زهور. هذه امرأة من سلالة الزنبق، تحتاج إلى أن يسندها بقبلة."(24) (مستغانمي، 2013، صفحة 141)

ومن المعارف الأخرى المصطلحات الصيدلانية والطبيّة في قولها: "فقد كان يحتاج إلى أخذ جرعات إضافيّة من صوتها، كمن يأخذ قرصاً من الأسبرين لمعالجة مرض مزمن. اكتشف مرضه للتوّ وهو يتابعها. كانت تنقصه امرأة مثلها كي يتعافى، ويتخلّص من كلّ الأجهزة الاصطناعيّة التي يستعين بها على حياة فقدت مباهجها"(25). (مستغانمي، 2013، صفحة 18)

مستحضرة حادثة طريفة في التّحوّلات السياسية في أوروبا خاصة الدّول التي استقلّت عن الإتحاد السوفيتي (سابقا) والتي دخلت في تجربة سياسية جديدة بين أبنائها فيما يتعلّق بالحكم، ومنها حادثة الرئيس الأكراني فيكتور يوشينكو الذي تعرّض لعملية تشويه من طرف خصومه السياسيين كادت أن تقضي عليه لعبت فيها مادّة سامة شديدة المفعول تأثيرا كبيرا على وجهه "شوّه المال وجهه كما شوّه (الديكوسين) وجه رئيس أوكرانيا الوسيم فيكتور يوشينكو، يوم سمّموه، فبدا مسخاً عن وجهه الأصلي."(26) (مستغانمي، 2013، صفحة 285) الديوكسين اسم يطلق بصفة عامة على مجموعة من المواد الكيماوية شديدة السُّمية. ومن العلوم الحيوية التي استحضرتها الروائيّة الفيزياء من الحادثة التاريخية التي وقعت لإسحاق نيوتن" هو طاعن في المكر العاطفي، ويعرف كيف يُسقط أنثى كتفّاحة نيوتن في حجره. لكنّه يريدها أن تنضج على غصن الانتظار"(27) (مستغانمي، 2013، صفحة 71) قيل إنّ ثلاث تفاحات غيّرت تاريخ البشريّة، تفاحة آدم، وتفاحة نيوتن، وتفاحة آبل، ومن المؤشرات المصطلحيّة في التّغدية قولها: "ها قد أصبح يتصرف

كصائد،يجمع كلّ التفاصيل عن ضحيّته. وماذا لو كان هو الضحيّة في حبّ كامل الدسم.. مكتمل الألم ؟"(28) (مستغانمي، 2013، صفحة 72)

كما كان للمصطلحات الجيولوجية حضور استدعاه السياق العام لحركة السّرد "كلمتان كانتا كافيتين لإحداث تلك الارتجاجات بجدران قلبها. معه هي دائماً وسط حزام الزلازل."(29) (مستغانمي، 2013، صفحة 171) ، وراحت تقحم كلّ ما تعرفه من علوم وظيفيّة تصادفها في الحياة العامة منها الأوعية التي تقدّم فيها الأطعمة وطبيعة المواد التي تصنع منها "الذي يقدمّ لها العشاء في صحون البورسلين المغطّاة بأغطية فضّيّة فاخرة، كما ليخفي عنها وجبة الحزن"(30) (مستغانمي، 2013، صفحة 174) عبارة عن مادة تستخدم لصنع الأواني المنزلية والتماثيل، وبعض المصطلحات الأخرى سواء أكانت على صلة بالموضوع أو على غير صلة منها على سبيل المثال: "في لونين من كريستال شواروفسكي الأسود والأبيض. هي حتماً أغلى هديّة اشترتها في حياتها"(31) (مستغانمي، 2013، صفحة 281).

وكانت الفلسفة الوجودية بأسئلتها الثائرة في أوروبا تحدث ضجيجا مدويّا بأفكارها عن القيم الإسلاميّة، بدعوتها الإنسان التّحرّر من الدّين والمعتقدات وأنّ الإنسان هو من يحقّق وجوده في الحياة، أنّ الإنسان حرّ في أفعاله يستطيع أن يصنع نَفْسه كما يبدو له تحقيقًا لوجوده الكامل في الحياة.

وقد تأثّر كثير من المثقفين العرب بهده الفلسفة الثائرة كموضة جديدة خاصة في موطنها الأصلي في فرنسا لكون صاحب جون بول سارتر(1905-1980) فرنسيّا.

يتفق كلّ الباحثين على أن المساءلة ضرورية فهي مفتاح لمغاليق الكون ولإطلاق العنان للفكر فكانت هذه الرواية مثقّلة بحومولات دلاليّة وفلسفية التي أثرتها وزادت من فاعليتها على المتلقي العربي ويعود سبب الحضور الفلسفي لعدّة أسباب منها:

اهتمام الكاتبة بالفلسفة وخاصة أنها درست في فرنسا وعايشت السارتريّة في الجامعات الفرنسيّة، وأمّا اهتمام أحلام بالفنون متأتٍ من كون باريس هي عاصمة الفنون في العالم.

الشخصية المركزيّة في الرواية يغلب عليها القلق والاضطراب، كلّ ذلك الدّاخلي من قلق السّؤال الدّاخلي الذي يثير فيها كثير من الاستفهامات تحاول من خلالها فهم

الحياة والبحث عن مفاتيح السعادة، مما جعلها تغرق في دوامة من الأسئلة ذات الطابع الأنطولوجيّ.

محاولة تفسير ظواهر الحياة تفسيرا فلسفيا تتقاطع فيه المشاعر الإنسانيّة الراقية بالموسيقى كلغة جامعة بين شعوب الأرض.

استحضرت الروائيّة الفيلسوف الألماني فردريك نيتشة (1844-1900) وهو مؤسس الفلسفة الغربيّة الذي يكفر بالأديان والمعتقدات، ويؤمن بالعدميّة وعلى أنقاض أفكاره جاءت الفلسفات الإلحاديّة في أوروبا المعاصرة ومنها الفلسفة الوجوديّة.

وهنا حاول الراوي استدراجنا على لسان الشخصية المركزيّة إلى فلسفة الوجود وعبثية الحياة وجدلية الذات والموضوع والجبر والاختيار والتشاؤم والتفاؤل والحق والحقيقة والعدل والسعادة والسياسة والإرهاب والديمقراطية والديكتاتورية وأخضع الحب للتفلسف على كل المستويات الواقعية والغريزية والصوفية والنفسية والاجتماعية والقبلية،(32) (الكريوي، 2014، الصفحات 117-118) وميّز بين أنواع الحب بين الطبيعي والروحي والمثالي الصوفي والحسي الماجن والعذري الطاهر، منها قوله: "هل أكثر فقراً من ثريّ فاقد الحبّ؟"(33) (مستغانمي، 2013، صفحة 13)أو في قوله مثلا: "أيّ لغة تتكلّم هذه الفتاة؟ كيف تسنّى لها الجمع بين الألم والعمق، أن تكون عزلاء وعلى هذا القدر من الكبرياء؟(34) (مستغانمي، 2013، صفحة 18)

وقد حفّزت هذه التّساؤلات الأنطولوجيّة الشخصية المركزيّة على المزيد من الحديث الفلسفي الذي ينبثق من ولع الكاتبة نفسها بمثل هذه المواضيع المثيرة للجدل للفكري "الآن وقد خبر كل شيء، يحتاج إلى إعادة روحه مما حل بها من خراب.

حتى الكلمات تتطلب منه إعادة نظر: (الوطن)، (الشهيد)، (القتيل) (الضحيّة)، (الجيش)، (الحقيقة)، (الإرهاب)، (الإسلام)، (الجهاد)، (الثورة)، (المؤامرة)، (الكفّار): أتعبته اللغة. أثقلته. يريد هواءً نظيفاً لا لغة فيه، لا فصحى ولا فصاحة ولا مزايدات. كلمات عادّية، لا تنتهي بفتحةٍ أو ضمّةٍ أو كسرةٍ.. بل بسكون. يريد الصمت."(35) (مستغانمي، 2013، صفحة 95)

لو عدنا إلى التاريخ لوجدنا أنّ الميتافيزيقية هي من قادت البشرية إلى الحقيقة المطلقة، لولا هذا النوع من الأسئلة الوجوديّة لما اهتدى سيّنا إبراهيم عليه السلام إلى

الإيمان بالله، وقد أثارت هذه الأسئلة كثيرا من النقاش والجدل في حياة البشر خاصة بالجبر والاختيار، وأنّ الإنسان مقيّد أم مُخيّر وغيرها من الأسئلة التي يصحّ القول عنها بالأسئلة التّأسيسيّة للفكر البشريّ.

وقد يكون ذلك في الرواية نتاج حالة من الضياع الفكريّ، والاغتراب النفسي، حيث يصاب الفكر بالتشتت، فتلجأ الشخصية إلى الهروب نحو المجهول بحثا عن تفسيرات لحقيقة تعتقد فيها أو عن إجابات لواقع مفترض، إذْ أحيانا لا يتّسع الواقع الحقيقيّ الملموس فيلجأ الإنسان إلى واقع آخر في مخياله يجد فيه متنّفسا له يكون بديلا عن واقعه المعيش وهذا ما عاشته البطلة من خلال لجوئها إلى الخلوة والعتمة والانغلاق. وهذا ما يدفعها إلى العودة إلى الانكفاء على الذّات والاكتفاء بنفسها دون الحاجة إلى غيرها، إذن هي حالة من الاستبطان والحوار الذاتي "المونولوج":

يمثل مستوي من التفلسف الذي يعبر عن صراع بين العقل والعاطفة هو استغراق الذات في داخلها والبحث في أغوارها والحوار معها بالتساؤل وطرح الفرضيات والحلول ومحاولة التخلص من المخاوف والهواجس والكوابيس بحيث دفع الشخصية إلى البوح بطريقة ذات طابع الفلسفيّ تعبر من خلالها عن تصورها لهذا الوجود تقول الناقدة الأمريكيّة فيرجينا وولف : " بأنّ السّرد منطقة نسائيّة منذ زمن بعيد " (36) (وولف، 2001، صفحة 125)،إذن يمكن القول إذا كان السّرد غريزة إنسانيّة فإنّ المرأة من هي الأكثر ارتباطا به لكونه متنفسا لها وأداة تعبير ومقاومة في وجه الظلم الذي لحق بها من المجتمعات الذّكوريّة . و قد ظهرت كتابات نسويّة كثيرة ترافع عن المرأة وانشغالاتها في العصر الحديث سواء في الغرب أو الشّرق من هؤلاء النسوة في العالم العربيّ نذكر : مي زادة وعائشة التيمورية وسهير القلماوي وبنت الشاطئ وغيرهنّ من جيل التأسيس .

الإحالات :

1- مستغانمي أحلام : الأسود يليق بك ،دارنوفل ، بيروت ، لبنان ،ط 7 ، 2013 ، ، ص16.

2- م س، ص33.

3- م ن، ص35.

4- م ن، ص69.

5- م س، ص69.

6- م ن، ص73.

7- م ن، ص80.

8- م ن، ص87.

9- م س، ص194.

10- م ن، ص16.

11- م ن، ص21.

12- م س، ص25.

13- م ن، ص36.

14- م ن، ص147.

15- م س، ص147.

16- م ن، ص194.

17- م ن، ص26.

18- م س، ص154.

19- م ن، ص196.

20- م ن، ص197،196.

21- م ن، ص234.

22- م ن، ص95،94.

23- م ن، ص15.

24- م ن، ص141.

25- م س، ص18.

26- م ن، ص285.

27- م ن، ص71.

28- م ن، ص72.

29- م ن، ص171.

30- م س، ص174.

31- م ن، ص281.

32- ينظر: إدريس الكريوي: بلاغة السرد في الرواية العربية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص117، 118.

33- أحلام مستغانمي: الأسود يليق بك، م س، ص13.

34- م ن، ص18.

35- م س، ص95.

36- فرجينا وولف تر: رضا الظاهر ، دراسة في كتابة النساء، دار المدى مشق،ط1، سنة2001 ،ص125.